نشأة وتطور الصحافة الحديثة في الوطن العربي

على الرغم من اختلاف آراء المؤرخين حول تحديد البداية الإعلامية في العالم العربي سواء من حيث التاريخ الزمني أو القطر العربي الذي شهد هذه البداية أو الانتماء السياسي للرواد الإعلاميين في العالم العربي؛ فان هنالك إجماعاً من جانبهم على ان بداية تعرف العالم العربي على الصحافة كانت من خلال الحملة الفرنسية على مصر سنة 1789، وكانت جريدتا الحملة الفرنسية على مصر، الصادرتان باللغة الفرنسية هما أول جريدتين يعرفهما الوطن العربي، وكانت أولهما موجهة لجنود الحملة وهي صحيفة (كورييه دي إيجيبت) اي (بريد مصر) التي ظهر العدد الأول منها بتاريخ 29 آب 1797 واستمرت الى 30 تموز 1801. اما الجريدة الثانية التي اصدرها (بونابرت) في مصر فهي (لاديكاد اجبسين) أي (العشرية المصرية) التي تصدر مرة كل عشرة أيام[1].

اما الجريدة العربية الأولى التي استحقت ان تطلق عليها هذه الصفة فهي (الوقائع المصرية) التي صدرت سنة 1828 في عهد (محمد علي باشا) حاكم مصر آنذاك. إذ ظهرت (الوقائع المصرية) في أول عهدها باللسان التركي فقط، ثم برزت في اللغتين العربية والتركية ثم عادت تركية ثم عربية خالصة حيث تصدر ثلاث مرات في الأسبوع في اثنتي عشرة صفحة متوسطة الحجم وقد فوضت إدارتها وتحريرها الى العالم الكبير رفاعة الطهطاوي[2].

ونستطيع القول بأن النصف الأول من القرن التاسع عشر قد شهد نشأة الصحافة الرسمية في العالم العربي. ويمكننا أن نرمز لهذه البداية صحيفة (الوقائع المصرية) عام 1828، ثم ظهرت (المبشر) في الجزائر عام 1847 التي أصدرتها سلطات الاحتلال الفرنسية باللغة العربية لمخاطبة الشعب الجزائري. ثم توالى صدور الصحف الرسمية في العالم العربي فصدرت (الرائد التونسي) في تونس 1861. وفي سوريا صدرت صحيفة (سوريا) 1865 على يد الوالي العثماني. وفي ليبيا صدرت (طرابلس الغرب) 1866 ثم (الزوراء) في بغداد عام 1869 وفي اليمن صدرت صحيفة (صنعاء) عام 1879. وفي السودان صدرت (الغازيتا السودانية) 1899. أما في الحجاز فقد صدرت صحيفة (الحجاز) عام 1908 وكانت الناطق الرسمي باسم الدولة العثمانية. وعلى الرغم من الطابع الرسمي الذي صبغ النشأة الأولى للصحافة العربية فإن هناك بعض الأقطار العربية كانت البداية الإعلامية فيها شعبية، مثل لبنان إذ ظهرت فيه أقدم صحيفة أهلية هي (حديقة الأخبار) التي أصدرها خليل الخوري عام 1858. وفي مصر ظهرت صحيفة (وادي النيل) 1867 ثم صحيفة (الأهرام) عام 1876 وكذلك المغرب التي شهدت صدور صحيفة (المغرب الأهلية) على يد بعض اللبنانيين عام 1889 [1].

وابرز ما كان يميز الصحافة الرسمية في العالم العربي هو أنها كانت غالباً ما تنشر اللغتين التركية والعربية، وتتسم بالطابع الخبري في مجملها إذ كانت تضم أخبار الدولة العثمانية والقوانين والفرمانات وبعض الأنباء الخارجية. أما الصحف الأهلية فقد كانت تعتمد أساساً على المقالات ذات الطابع الأدبي، مضافاً إليها المضامين الخبرية، ولكن بنسب أقل سواءً من حيث المساحة أو نوع هذه الأخبار، ولم تكن تحوي مقالات سياسية بسبب القيود التي كانت تفرضها السلطات العثمانية آنذاك. إذ أنه ومنذ صدور أول نظام للمطبوعات للدولة العثمانية في عام

1863، مروراً بما يعرف بالعهد الحميدي الذي تشكلت فيه أول هيئة رقابية على الصحف الصادرة في البلاد العثمانية، وذلك في عام 1866، كانت الصحافة في البلاد العربية، بحكم ارتباطاتها بالصحافة التركية، تعيش الظروف ذاتها، أن لم تكن اشد وأقسى من تلك الظروف التي تعيشها الصحف الصادرة في الأستانة، فقد كانت الصحف في البلاد العربية مشمولة برقابة ظلت تتحكم في مصيرها، وتعرقل سيرها ردحاً طويلاً من الزمن وتتعرض للضغط والملاحقة على الرغم من قلتها واقتصارها على الصحف الناطقة بلسان الدولة في معظم الأحيان[1]. ومما تجدر الإشارة إليه ان الصحافة العربية قد ساهمت مساهمة فعالة في تبسيط اللغة وتوضيحها وسبب ذلك إنها تتبع في الكتابة الأسلوب التلغرافي. إن أساس الصحيفة هو الخبر المثير وهي تحاول ان تعطيه للقارئ باختصار وبساطة لكي يفهمه القارئ حالما يقع نظره عليه ولهذا فهي تتجنب اللف والدوران أو استعمال الترادفات المتعددة في المعنى الواحد كما يفعل الأدباء[2].

ويمثل الدستور العثماني الذي صدر عام 1908 نقطة مضيئة بالنسبة للصحافة العربية في تلك الفترة إذ بدأت به مرحلة انطلاق نسبي ترجع إلى الحرية الجزئية التي منحها للصحف. ومنذ ذلك الحين بدأت صحف الرأي الشعبية تأخذ طريقها إلى الظهور والانتشار وكانت في اغلبها تعبر عن مشروعات فردية، إذ كان يقوم بإصدارها أفراد أو جماعات أو هيئات شعبية. وقد اتسمت بالكثرة وسرعة الظهور؛ بسبب اعتمادها على مصادر تمويل غير منتظمة (إعانات أو تبرعات أحياناً) وبسبب طبيعة المرحلة التاريخية التي تميزت بكثرة الدسائس والمؤامرات ضد الدولة العثمانية التي أطلق عليها رجل أوربا المريض في ذلك الحين. وقد انعكست هذه السمات على الصحافة العربية إذ تنافست أطراف الصراع المختلفة في استخدامها

كأداة رئيسة في الصراع. وكانت مصر مسرحاً رئيساً لهذا الصراع الذي اتخذ أشكالاً متعددة. فقد ضمت مصر في تلك الفترة ممثلين أشداء للصراع العثماني الأوروبي العربي. فظهرت الصحف المعادية للدولة العثمانية التي تؤيد الاحتلال البريطاني لمصر، مثل صحيفة (المقطم) المصرية التي صدرت في 14 شباط 1889[1]. وظهرت الصحف التي تساند فرنسا ضد الاحتلال البريطاني مثل صحيفة (الأهرام) التي أصدرها سليم تقلا في 5 آب 1876[2]. كما لعبت بريطانيا دورها المعروف في استخدام الأقليات في صراعها ضد الدولة العثمانية مثل الأرمن الذين ساعدهم الإنكليز على نشر صحف لهم بمصر تدعو إلى إقامة دولة مستقلة لهم مثل جريدة (الزمان) التي أصدرها علكسان صرافيان في 6 آذار 1882 [3]. وكذلك استقطبت إنكلترا من الصحفيين الشوام الذين لجؤوا إلى مصر هروباً من الاضطهاد العثماني واستخدمتهم لخدمة مصالحها والترويج لأفكارها من خلال الصحف التي ساعدتهم على إصدارها مثل (صدى الشرق، والمحروسة، والمقتطف، والاتحاد المصري) [4] كما شجعت بريطانيا على صدور بعض الصحف اليهودية ذات الميول الصهيونية المبكرة مثل صحيفة (الحقيقة) و (الزراعة) اللتين كانتا تعدان بوقاً للدعاية البريطانية في مصر[5]. هذا وقد احتضنت إنكلترا أعضاء حركة تركيا الفتاة الذين هربوا إلى مصر وساعدتهم على إنشاء صحفهم لمحاربة الدولة العثمانية. وقد أسهمت الصحافة في الوطن العربي مطلع القرن التاسع عشر في تنشيط حركة الترجمة ومكنت العرب من الاطلاع على ثقافة الغرب وعلومه، ولقد أسهمت الصحف والمجلات الرائدة أمثال: المقتطف (1885)، والهلال(1892)،

والجنان(1870) وروضة المدارس(1870) وغيرها الكثير، في ترجمة البحوث والمقالات العلمية ونشرها على صفحاتها[1].

وقد أسهمت الصحافة العربية منذ نشوئها في مطلع القرن التاسع عشر في إشاعة جو من الثقافة لاستكمال النهضة العربية الحديثة[2]، لاسيما في مصر التي كانت الصحافة فيها تتمتع بحرية أوسع نسبياً من باقي الولايات العثمانية[3]. ومن القرائن التاريخية التي يجدر التنبيه إليها أن الصحافة العربية الشعبية قد أسهمت بدور بارز في مناهضة الحكم العثماني، وسجلت تاريخها الخاص كجزء من حركة التحرر العربية ضد السيطرة العثمانية. وتحملت الصحف الوطنية العربية المطاردات العثمانية وأشكال الاضطهاد المختلفة التي بلغت ذروتها بإعدام 17 صحفياً عربياً في المذابح الشهيرة التي ارتكبها الحاكم التركي جمال باشا سنة 1916 ضد الوطنيين العرب. ومن ابرز ما تميزت به الصحافة العربية إنها كانت سابقة على نشأة الأحزاب في العالم العربي. ويمكن القول أن الصحف كانت نواة للأحزاب. ومثل ذلك مصر التي شهدت ظهور الأحزاب كتجسيد وبلورة لأفكار واتجاهات بعض الصحف الوطنية التي كانت قائمة من قبل. فقد ظهر حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية تعبير عن صحيفة (المؤيد)، وتزعمه الشيخ علي يوسف الذي كان يرأس تحرير هذه الصحيفة[4]. وكذلك الحزب الوطني الذي ظهر لتجسيد أفكار وآراء جريدة (اللواء) التي كان يرأس تحريرها الزعيم المصري مصطفى كامل. كما أن حزب الأمة كان يعبر عن صحيفة (جريدة)، وكان رئيس تحريرها لطفي السيد هو سكرتيره العام.

وقد اكتملت الحلقة الاستعمارية حول العالم العربي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى؛ وذلك بخضوعه لكل من النفوذ البريطاني والفرنسي مع استمرار بقاء الاحتلال الإيطالي لليبيا، والسيطرة البريطانية على كل من مصر والسودان واستقلال اليمن والدولة الهاشمية في شبه الجزيرة العربية، ومنح الحركة الصهيونية حق إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد كان لهذه التغيرات آثارها المباشرة على الخريطة الإعلامية للعالم العربي، فقد تأثرت حركة إصدار الصحف ونوعية القضايا الاجتماعية والفكرية والسياسية المطروحة؛ بأساليب الصراع بين القوى الوطنية العربية وسلطات الاحتلال، وبالنمط الاستعماري السائد في كل منطقة من العالم العربي. فنلاحظ أن منطقة المغرب العربي (تونس ـ الجزائر ـ المغرب) قد أفرزت واقعاً إعلامياً يمثل خلاصة الصراع السياسي والاجتماعي والديني بين الشعوب العربية هناك. وبين الاحتلال الفرنسي الذي اتسمت أساليبه بالقهر الثقافي والتحدي الديني والقومي لمقومات الشخصية العربية في تلك الدولة. فكانت السلطات الفرنسية تعمل على صبغ جميع جوانب الحياة الثقافية بالطابع الفرنسي الخاص. وقد خاضت عدة معارك صليبية ضد الدين الإسلامي والثقافة العربية، كما حرصت هذه السلطات على إصدار صحفها الخاصة بالإدارة الاستعمارية بالإضافة إلى صحف المستوطنين الفرنسيين. ولذلك لم تتوان عن ملاحقة الصحف الوطنية الناطقة باللغتين العربية والفرنسية ومصادرتها، والتنكيل بأصحابها ومحرريها من جانب الاحتلال الفرنسي طوال الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين. ولا شك أن هذا السلوك من جانب الاحتلال الفرنسي يعد سمة مميزة له على امتداد تاريخه في العالم الثالث، وهو القهر الثقافي المباشر والمحاولات المستمرة لسلخ وتشويه الثقافات القومية في البلاد المحتلة. أما في المناطق التي خضعت للنفوذ البريطاني فقد اختلفت أساليب الصراع؛ بسبب اختلاف طبيعة المستعمر. فقد اتبعت بريطانيا سياستها المعروفة (فرق تسد) في مجال الصراع السياسي المباشر، بينما عمدت في المجال الثقافي والإعلامي إلى إثارة الخلافات اللغوية والاثنية، وكانت نتيجة ذلك تشجيعها للهجات المحلية

كجزء من تشجيعها للخلافات القبلية والطائفية ومن هنا جاءت محاولات لضرب اللغة العربية الفصحى؛ من خلال تشجيع إصدار صحف باللغات المحلية. وقد تأخر ظهور الفن المطبعي في البلاد العربية بصورة عامة والعراق بصورة خاصة؛ وذلك للعزلة التي فرضتها الدولة العثمانية على البلاد العربية في كل ما هو حديث، خشية أن تهب الشعوب العربية الرازحة تحت سيطرتهم مطالبة بالحرية والحياة الكريمة، فتأخرت البلاد ثقافياً وبقيت خالية من الطباعة مدة طويلة رغم انتشارها في معظم الأقطار الأجنبية. وللبنان الفضل الأول في إدخال المطابع فقد أسست مطبعة (دير قزحيا) عام 1610 وكانت أول مطبعة عربية في بلاد الضاد.

أما العراق فقد اقتصرت الطباعة على بغداد والموصل أما الطباعة في المدن الأخرى فكانت في أربعة مدن هي: كربلاء وكركوك والبصرة ثم النجف متسلسلة حسب تاريخ ظهورها. ففي كربلاء ظهرت الطباعة مبكرة الا انها لم تستمر طويلاً، فمنذ سنة 1856 أسست مطبعة حجرية استقدمت من إيران في عهد (محمد رشيد باشا) قامت بطبع مناشير تجارية وكتب وأدعية دينية حاوية لآداب الزيارة للمراقد الدينية، وتعد أول مطبعة عرفها العراق[1]. وفيها طبعت طائفة من رحلات (أبي الثناء شهاب الدين محمود الآلوسي) مفتي بغداد. إلا أن الصحفي رزوق عيسى يرى ان أول مطبعة تأسست في الكاظمية ببغداد سنة 1831 وطبع فيها كتاب دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد لمؤلفه الشيخ رسول الكركوكلي[2]. وفي الموصل انتشرت الطباعة على أيدي (المبشرين الدومنيكان) الذين أسسوا مطبعة حجرية بدائية أول الأمر في وذلك في عام 1858، إلا أنهم عملوا على توسيعها وشراء مطبعة كاملة وكان ذلك عام 1863، وتم طبع العديد من الكتب الدينية فضلاً

عن الكتب العلمية وباللغات العربية والتركية والفرنسية، منها كتاب (رياضة درب الصليب) لمؤلفه يوسف داود الموصلي. وفي عام 1863 تأسست في الموصل مطبعة ثانية هي (المطبعة الكلدانية) التي أنشأها القس رفائيل مازجي بعد ان جلب معداتها من باريس، ويعد كتاب (مزامير داود النبي) باكورة إصداراتها[1]. واستمرت مطابع الدومنيكان في النشر إلا أن السلطات العثمانية صادرتها أثناء الحرب العالمية الأولى بدعوى تبعيتها لدولة معادية وضمت إلى (مطبعة الولاية). وفي مدينة البصرة ــ ثالث كبرى مدن العراق ــ قامت السلطة العثمانية في سنة 1889 بتأسيس أول مطبعة فيها وإصدار أول جريدة في المدينة سميت جريدة (بصرة) التي تغير اسمها فيما بعد الى (البصرة). وكان الحدث الأهم في تاريخ الطباعة في العراق هو قيام الوالي العثماني مدحت باشا بإنشاء مطبعة جديدة في بغداد سنة 1869 سماها (مطبعة الولاية) بإشراف مديرها (احمد مدحت أفندي) التي أصدر من خلالها أول جريدة عراقية سميت (زوراء)، كما أحضر مع مطبعة الولاية (مطبعة حجرية) سميت بـ(مطبعة الفيلق) وكانت تقوم بطبع مطبوعات الجيش المختلفة، وهي مطبوعات سرية لا يطلع عليها إلا كبار قادة الجيش. وقد أخذت هذه المطبعة في النمو بعد عزل (مدحت باشا) عام 1872. وفي عام 1893 أصبح فيها تسع طابعات، واحدة منها تدار بالبخار واثنتان تداران باليد وأربع طابعات حجرية وآلة واحدة لتحسين الأقمشة وأخرى لعمل المظاريف، وقد أصدرت في هذه الفترة (سالنامة) أي الولاية. وقد أسست (مطبعة الولاية) في الموصل عام 1875 وقامت بطبع بالأوراق الرسمية والتقاويم التركية المعروفة (موصل سالنامة سي) وطبع جريدة (الموصل) ولم تكن هذه المطبعة مقصورة على طبع المطبوعات الحكومية وإنما كانت تطبع كل ما يقدمه إليها الأهالي من مطبوعات[2].